تأثير التقنيات الحديثة على أشكال تقديم وتلقي الخطاب النقدي المسرحي

د.ربيعة بن لطيفة

تونس

يعتبر نقد الأعمال الفنية نشاط فكريا يقوم على التحليل و التقييم يرتقي بالعمل الفني و يعرف به لدى المتلقي، ورغم أنه معروف عن الناقد أنه يشاكس المبدع فإن ذلك لا يعني أن النقد هو الكشف عن العيوب وعن الجوانب السلبية فقط ، بل هو ابتكار معرفة جديدة و رؤية للأثر الفني ربما تختلف عما أراده مبدعها و هي لا تقل عنها أهمية فكما للمبدع جمهوره فإن للناقد أيضا جمهوره الذي يثق به ويلتزم بآرائه وقناعاته. ورغم أن الناقد مطالب في الغالب أن يكون موضوعيا فإن الكتابات النقدية مهما اختلفت الفضاءات والهياكل التي تقدمها للمتلقي تحمل موقف كاتبها من الأثر الفني سواء كان ذلك بشكل علني يصل حد التهجم و الاستهجان أو الإعجاب والانبهار أو بشكل مقنع تحت نظريات و جماليات عامة.

فمثلا في المسرح الذي هو موضوع بحثنا تختلف قراءة العرض البصري المنبثق من النص من ناقد إلى آخر ، فهناك من يطلق الجاهز من أحكام القيمة والانطباعات والآراء في أن يكون هذا العمل رديئاً أو جيداً ، وهناك من يبتعد حتما عن النقد الذي يقلل من أهمية العرض على حساب النص. ويتبع النقد الموجه لتحليل العرض من اجل التفكيك وإعادة التركيب بشكل يحافظ على العرض بكافة مكوناته البصرية بوصفه الحلقة الأهم التي لابد من تناولها وسبر أغوارها وما يدور في فلكها من أهميات ،دون إهمال النص بوصفه مادة للنقد و تنزيله في سياقه الاجتماعي و التاريخي و الجمالي.

إضافة إلى ذلك يخلق النقد ذاكرة توثيقية للعرض المسرحي تترسخ من خلال الوثائق التي تتمثل عادة في مقالات منشورة في الجرائد أو المجلات المتخصصة و كذلك في المحاضرات والأبحاث الجامعية أو المنشورات الخاصة ببعض الملتقيات و التظاهرات الثقافية وقد كانت هذه الوثائق المكتوبة من الوسائل القليلة لتوثيق العرض المسرحي خاصة و أن التصوير التلفزي أو التصوير بالفيديو لم يكن أمرا متاحا لكل المسرحيات .و لكن التطورات التقنية خولت طرقا أخرى لتوثيق العرض المسرحي تسهل تداوله نذكر منها التوثيق على الأقراص الليزرية المضغوطة وكذلك عبر الشبكة العنكبوتية بالتوازي مع ذلك ساهمت هذه التطورات التقنية في انتشار الخطابات النقدية سواء في شكلها المكتوب أو في أشكال جديدة أفرزها انفتاح النقاد و القراء على التقنيات الحديثة في الاتصال . وقد ارتأينا من خلال هذه المداخلة أن نتناول بالتحليل المتغيرات و التحولات التي طرأت على الخطاب النقدي المسرحي في ظل استخدام التقنيات الحديثة في عرضه و توثيقه من خلال ثلاث مستويات .

أولا سنتناول بالتحليل تأثير التقنيات الحديثة على مختلف أنواع الخطاب النقدي و سنقدم شواهد من تجارب النقد المسرحي في تونس. ثم سنبين كيف أسهمت التقنيات الحديثة في تقديم و تقييم و توثيق هذه المقالات على اختلاف أنواعها و اختلاف كتابها و اختلاف الرؤى و المناهج من بلد إلى أخر.

في مستوى ثاني سنتطرق إلى الأساليب الجديدة في تقديم النقد و كتابته التي يمكن أن توفرها المنظومات الإعلامية و مواقع التواصل على الشبكة العنكبوتية للناقد المسرحي و سنبين مدى تأثير هذه الأساليب المستحدثة على مناهج النقد و جودته و مصداقيته.

في مستوى ثالث سنحاول أن نبين التحولات في العلاقة بين المتلقي و النصوص النقدية المسرحية في ظل نشر و تقديم و توثيق المقالات النقدية عبر الوسائط الإعلامية و الاتصالية الحديثة، وسنبرز ما ينجر عن ذلك من تداخل حيث يصبح الكاتب متلقيا و المتلقي كاتبا.

أما عن أنواع الخطاب النقدي التي كانت تتمظهر في أطر مختلفة ومتعددة نذكر أولا الكتابة الصحفية التي عادة ما تكون انطباعية تأثرية، و التي تبرز بشكل جلي في المقالات المنشورة في الجرائد والمجلات الوطنية والعربية والدولية على حد سواء وتجدر بنا الإشارة أنه كان لهذه الكتابات بالغ الأثر في التوثيق و الأرشفة لبدايات المسرح التونسي في ظل غياب المؤلفات "باستثناء ما ذكره

الأستاذ التونسي المنصف شرف الدين في كتابه "قرنين من المسرح التونسي" عن كتب الرحالة الغربيين خلال رحلاتهم إلى تونس و مشاهدتهم لبعض ظواهر الفرجة التقليدية التونسية أو لبعض أنشطة عروض الجالية الغربية المقيمة بتونس[1]" وقد كانت أغلب الصحف تزامنا مع إنشاء أول الفرق المسرحية و الجمعيات تنشر القوانين الداخلية و بعض محاضر الجلسات والبيانات ولكن وظيفتها تحولت لاحقا بتزايد عدد الفرق إلى تغطية الخلافات و الانقسامات داخل هذه الفرق التي تخول مادة أغزر و تجلب أكثر إقبال القراء وفي مرحلة لاحقة تسيست المقالات النقدية فظهرت آراء و مواقف من المسرحيات تحمل في طياتها أبعادا سياسية وأخلاوية نذكر من بين هؤولاء النقاد حسين الجزيري الذي ورد في كتاب بدايات النقد المسرحي في تونس" للأستاذين محمد مسعود ادريس و حافظ الجديدي أن نقده تميز بمنهجه السياسي الملتزم وبدفاعه عن مسرح وطني ملتزم باللغة العربية وبالهدف السامي لمحتوى المسرحيات و بأخلاق سميحة. و كذلك بتهذيب الجمهور و بعناية بالممثلين. "[2]

وتواصل تحول الكتابات النقدية للمسرحيات في الصحف عن منهجها النقدي إلى الإعلام و الإخبار عن وجود عمل مسرحي جديد لدرجة أن مجموعة من المسرحيين الكبار في تونس أصبحوا يحضون بنصيب الأسد من هذه الكتابات حيث أنه بمجرد صدور عمل جديد لهم تظهر كتابات عنها أغلبها لنفس النقاد.

تطورت هذه الكتابات بمرور الزمن إلى نصوص مرفوقة بصور عن العرض و لكن الإقبال على قراءة الصحف المكتوبة تقلص مع ظهور منظومات إعلامية حديثة نذكر منها الصحف الإلكترونية التي تخول

وسيلة تواصل بطريقة مغايرة على طرق التواصل المكتوبة على الورق حيث أن بعض الجرائد الالكترونية تقدم مقتطفات من العروض في شكل فيديوهات فضلا عن النص التقييمي.

إضافة إلى ذلك فإن مواقع التواصل الاجتماعي تسهل انتشار وتداول وتوثيق بعض النصوص النقدية ما كتب منها في الصحف الورقية أو الصحف الإلكترونية.

ورغم ما ذكرناه عن أهمية و جدية الكتابات النقدية في المجلات و الجرائد و الصحف اليومية فإنه تجدر بنا الإشارة أن نقلها من الورق إلى الحاسوب لم يؤثر على أسلوب الكتابة ولكنه ساعد على نشرها و إيصالها إلى أكبر عدد من القراء إذ أن قراءتها متاحة من أي مكان في العالم ، حيث أن المقالات في المجلات الثقافية التونسية التي تتناول العرض بالتحليل لازالت تحافظ على منهج التحليل و النقد الذي عرفته بدايات الخطاب النقدي في تونس مع محمود بورقيبة من خلال جريدة الوزير وجمال الدين بوسنينة من خلال جريدة الزمان وغيرهم حيث يبدأ المقال بتقديم المسرحية وكاتبها ومخرجها ويحاول بيان محاسن و هانات الإخراج على حد سواء ثم يتناول بالنقد الأداء التمثيلي ويذكر في هذا السياق أن الناقد التونسي محمود بورقيبة كان "يدلي بملاحظاته على كل ممثل ولكل دور و كأنه معلم يوزع الأعداد للتلاميذ"[3]

في المقابل، هناك العديد من الإضافات في الكتابات الحديثة فرضه تطور تقنيات العرض ومكوناته المرئية مثل الإضاءة و الديكور.

أما بالنسبة للكتب المخصصة للنقد المسرحي فإنها تحمل من جهة خصوصيات مؤلفها و منهجه في النقد ولكن محاور الاهتمام تكاد تكون متطابقة مع ما ذكرناه سابقا عن المقالات في الجرائد بل إن بعض المؤلفين يقومون بتجميع مقالاتهم في كتب.من جهة أخرى يتبع العديد من النقاد منهجا يقوم على نقد مرجعي خارجي ، يحتكم إلى المعطيات المرجعية ، كالتحقيب التاريخي والتوثيق والتأويل الاجتماعي و السوسيولوجي، إما بطريقة مباشرة كالمنهج الاجتماعي الإيديولوجي القائم على الانعكاس المرآوي، أو بطريقة غير مباشرة تستند إلى البنيوية التكوينية، بالإضافة إلى التحليلين الفلسفي والديني من جهة أخرى هناك من النقاد من يتعامل مع النص

---

[1] Charfessine Moncef « Deux siécles de thèatre en Tunisie » Ed Harf , Tunis, 2000

[2] محمد مسعود إدريس و حافظ الجديدي "بدايات النقد المسرحي في تونس من خلال مساهمات بورقيبة و الجزيري و بوسنينة" دار سحر للنشر'تونس 2011 ص 6

[3] محمد مسعود إدريس و حافظ الجديدي "بدايات النقد المسرحي في تونس من خلال مساهمات بورقيبة و الجزيري و بوسنينة" دار سحر للنشر'تونس 2011 ص 15

باعتباره علامات وإشارات ورموز وأيقونات وهناك من يعتمد في مؤلفاته على النقد الإتنوسينولوجي الذي يتناول بالدراسة جميع جوانب الفعل المسرحي من نص وتمثيل وإضاءة و موسيقى و ديكور و إكسسوارات ...

في جانب آخر، يمكن أن يتجاوز الخطاب النقدي نقد المسرحيات إلى التنظير حول الممارسة المسرحية ونقد و تحليل نظريات ومؤلفات نقدية مسرحية تونسية أوعالمية قد اختص بذلك في تونس الأساتذة الجامعيون من المسرحيين التونسيين نذكر منهم محمود الماجري و محمد مسعود إدريس و محمد المديوني وفوزية المزي... أما في علاقتها بالتقنيات ظلت الكتب المخصصة للنقد و التنظير المسرحي في تونس محافظة على مكانتها بين رفوف المكتبات ولا يكون حضورها على الشبكة العنكبوتية إلا لبيعها عبر المكتبات الإلكترونية أو لإشهارها من خلال مقالات مختصرة في الصحف الإلكترونية أو على مواقع و صفحات على الفايسبوك التي تهتم بالمسرح نذكرمنها صفحة راديو المسرح التي تهتم بالتعريف بالإنتاج المسرحي التونسي و تبث عروضا مباشرة وتواكب التظاهرات والملتقيات والمؤلفات حول المسرح.

هناك صنف أخر من الكتابات النقدية ظهر مع مجموعة من الباحثين والدارسين الأكاديميين الذين تناولوا المسرح إبداعا ونقدا ونظرية، وذلك في شكل رسائل وأطروحات وأبحاث جادة ورصينة، أنجزت في رحاب المعاهد والجامعات مستفيدين من نظريات الحداثة وما بعد الحداثة في الغرب ومن مؤلفات المنظرين للفن المسرحي والذي رغم أهميته ظل لسنوات طويلة سجين رفوف مكتبات الجامعات و انحصر الاطلاع عليه في الوسط الجامعي الذي ظهر فيه ما عدى عدد محدود جدا وقع نشره في كتب. ولكن مع تطور المنظومات الإعلامية أصبح بالإمكان تحول هذه الأبحاث إلى ذاكرة افتراضية جماعية من خلال المكتبات الافتراضية للمؤسسات الجامعية ،تجدر بنا الإشارة أن هذه الظاهرة تعممت في جامعات الدول المتقدمة مثل فرنسا و كندا وبقي اعتمادها في المؤسسات الجامعية العربية مثل تونس و المغرب محدودا إن لم نقل منعدما.

إضافة إلى ذلك وفرت المنظومات الإعلامية والتواصلية الحديثة وسيلة جديدة للنقد ارتأينا تسميتها بالنقد الرقمي وقد شملت مختلف أشكال نقد الإبداع من الأدب والفنون إلخ... وهي تنقسم إلى صنفين النقد الرقمي للمتخصين و النقد الرقمي للمتلقي العادي، أما فيما يتعلق بنقد المتخصصين فقد كان ذلك منذ سنوات عن طريق المدونات الكترونية نذكر منها مدونة مسرحيون وهي صفحة إلكترونية ثقافية وفكرية متخصصة في النقد المسرحي تحتوي على مقالات و آراء الزوار بالإضافة لمعلومات تقنية .يمكن أيضا أن يكون للناقد المسرحي مدونة خاصة به ينشر فيها مقالاته و يمكنه ذلك أيضا على صفحته في مواقع التواصل الاجتماعي و ميزة هذه الطريقة في كتابة الخطاب النقدي أنها تمكن من إيصال موقف الناقد إلى كامل أصقاع العالم و تساهم في التعريف بالمسرحيات و التجارب النقدية من بلد إلى أخر و لها ميزة أخرى غير متاحة للمقالات على الورق و هي إمكانية تحوير و تعديل و إضافة بعض الأفكار.و هي تخول تبادل النقد بين نقاد من كامل أنحاء العالم من خلال التعاليق.

إضافة إلى ذلك يمكننا القول أن اطلاع الناقد المسرحي على مسرحيات عبر الأنترنات يمكنه من إبداء نقده لتجارب في مكان بعيد عنه ولكن تجدر بنا الإشارة في هذا المستوى أن نقل العرض المسرحي عبر الأنترنات يشوه المكونات البصرية للعرض ويقلص مجال رؤيتها ويحجب العديد من الصور و يبقى هذا النقل مرتبطا بعدسة المصور و بالتالي تكون المقاربة النقدية نسبية وغير أمينة مقارنة بما تكون عليه إثر مشاهدة العرض مباشرة. هذه الخصوصيات للصورة المنقولة عبر الحاسوب تنطبق على صورة الخطاب النقدي الرقمي ولعل هذا ما يجرنا للحديث عما أطلق عليه الأديب المصري السيّد نجم مصطلح «بلاغة الأنترنت» [4] حيث أن بلاغة الخطاب النقدي الرقمي سواء أن كان مرفوقا بالصور أم لا، تقاس بمعايير مغايرة لتقييم الخطاب النقدي على محمل ورقي. هذه المقاييس هي المقياس الوظيفي أي سهولة استخدام الموقع، والمقياس الجمالي أي الاعتبارات المرئية و النصية والتفاعلية. حيث أن النص الإلكتروني، عندما يقرأ على الحاسوب لم يعد بنية خطية بالضرورة، بل هو يذوب مع المحتوى في التصميم المرئي ويمكن أن تتراجع سطوة المضمون أي الخطاب النقدي أمام سطوة الأيقونات والصور المحمّلة ونوعية الخطوط و الألوان المستخدمة .

[4] "النقد الرقمي"مقال بقلم السيّد نجم، منشورعلى الصحيفة الإلكترونية "الغاوون" العدد 12 بتاريخ شباط 2009 على العنوان الإلكتروني :
http://www.alghawoon.com/mag/art.php?id=919

و لكن اهتمام المتلقي البسيط بالنصوص النقدية للمتخصصين في النقد المسرحي يمكن أن يفسر بأن النص الذي يمتلك المقومات الفنية العالية والقيمة الجمالية المرتفعة لا يهم أن يكون متوافقا مع أفق القارئ أو مختلفا معه أو متصادما مع طبيعة استجابته، فهذا النوع من النصوص على حد تعبير هانس روبير ياوس "هو وحده القادر على أن يؤثر على القارئ وينفد إلى نفسه ويقلب لديه الموازين، خصوصا حين يكون أفق ذلك النص مختلفا عن أفق انتظار القارئ و مخيبا لأفق توقعاته". [5]

أما في ما يتعلق بالمساحة التي يمنحها النقد الرقمي لغير المتخصصين فإنها تتسم بتحويل الفن من البسيط إلى الأكثر تعقيداً، حيث أن التقنيات الحديثة فضلا على مساعدتها على النشر والتعريف و التوثيق للكتابات النقدية شركت إلى حد ما القراء على اختلاف مستوياتهم الثقافية في تقييمها وذلك من خلال إتاحة المجال لهم في بعض المواقع لإبداء آرائهم .ولكن أسلوب كتابة هذه المقالات يكاد كما سبق و ذكرنا يدور في فلك المناهج الانطباعية والنفسية والاجتماعية والتاريخية من جهة و المناهج الحديثة في العلوم الإنسانية خاصة البنيوية والألسنية والسيميائية و التفكيكية من جهة أخرى مما يجعلنا نشكك في قدرة القارئ البسيط غير الملم بكل هذه المناهج على نقد موضوعي و بناء للمقالات المنشورة و بذلك تبقى المقالات في الجرائد **و** المجلات المتخصصة الوسيلة الأمثل لنقد الدراسات. ولعل هذا ما يفسر استهجان العديد من النقاد التونسيين لما أفرزته العولمة من تغييرات على الإبداع نستحضر من بينهم رأي الناقد المسرحي محمد مومن الذي يقول"

"...إننا على أبواب عصر نستهلك فيه فنونا وقع التلاعب بجيناتها... مثل الزراعة تماما و مثل الخلق الحيواني مع الإستنساخ. و لكن هل ستكون هذه الفنون بنفس طعم الفنون في مؤسساتها التقليدية.بالطبع لا، مثل ما أصاب الغلال التي أصبحت بدون طعم وبدون رائحة كذلك الفنون مع زحف تكنولوجيا المعلومات سوف تصبح هي أيضا بدون فعل إبداعي و بدون طعم الآلام..."[6]

أما عن أشكال تقديم هؤولاء الأشخاص غير المتخصصين في النقد المسرحي فإنها ليست إلا ردود أفعال انطباعية وتكون عادة في شكل فقرات متقطعة ،لا تعتمد بنية و أسلوبا محدد المعالم و ليس لها مرجعية فكرية ، بل هي تقدّم قراءة للعرض المسرحي، من دون الحاجة إلى أبجديات النقد ومع ذلك فهي تخلق علاقات تفاعلية بين المتلقي و النصوص النقدية من جهة و بين الناقد و القارئ من جهة أخرى حيث أن المنظومات الاتصالية الالكترونية تختزل المكان و الزمان الذي يتواجد فيه النص النقدي و كاتبه و قارئه ،وهي من جهة خلقت تداخلا بين الكاتب و المتلقي فعندما يصبح المتلقي كاتبا من خلال نقده للنص النقدي يتحول الكاتب إلى متلقي ومن جهة أخرى خلقت تداخلا بين النص النقدي و تعليقات القارئ حيث يظهران على شاشة الحاسوب متلازمين و متلاصقين.

وبالتالي يمكننا القول أنه من دون التفاعلية و الحضور التشاركي مع المتلقي لن يتحقق أي إبداع رقمي ، بل سيبقى هذا العمل جامدا ويمكن أن يموت إذا لم يقع تحيينه. بمعنى آخر يمكن أن نقر أن الخطاب النقدي الرقمي تفاعلي بالأساس وهو في حاجة إلى التجدد اللامحدود في الزمن ولعل هذا ما ذهب إليه إدمون كوشو في حديثه عن الإبداع الرقمي في الفنون المرئية حين قال " أن العمل الفني التفاعلي يتألف من موضوع برمجي محدد بشكل صارم وتام في وظائفه العرضية . إنه العمل الذي يمكن أن نسميه عملا (فني/عاشق) ومن جهة أخرى موضوعا مدركا يختزل تفاعلية المتلقي ب(العمل / العاشق) إنها التفاعلية التي تمكن من التجدد اللامحدود في الزمن ما يمكن أن نسميه العمل الهجين و الإبداع المتكامل." [7]

وختاما نستنتج أن الخطاب النقدي الرقمي الذي يستوعب أراء القارئ في نفس الفضاء الذي ينشر فيه هو إبداع تشاركي بين الناقد و المتلقي يستمد ديمومته و تواصله من هذه العلاقة النقدية المتداخلة و ذلك مناقض

---

[5] Hans Robert Jaus,"pour une esthètique de la reception",éd Gaillimard,1990

[6] مومن محمد، "*حدود فن بلا حدود*" مجلة الحياة الثقافية العدد188 ديسمبر2007 ص29

[7] Couchot Edmond, « *L'art numérique, comment la technologie vient au monde de l'art* », éd Flammarion Collection : Champs Arts (2 mars 2009)

للخطاب النقدي المكتوب على الورق الذي تتحدد ديمومته بطبيعته الخطية و لا يتواصل إلا بوجود نقد خطي له.

المراجع:

Charfessine Moncef « Deux siécles de thèatre en Tunisie » Ed Harf , Tunis, 2000

محمد مسعود إدريس و حافظ الجديدي "بدايات النقد المسرحي في تونس من خلال مساهمات بورقيبة و الجزيري و بوسنينة" دار سحر للنشر'تونس 2011

النقد الرقمي"مقال بقلم السيّد نجم، منشورعلى الصحيفة الإلكترونية "الغاوون" العدد 12 بتاريخ شباط 2009 على العنوان الإلكتروني : http://www.alghawoon.com/mag/art.php?id=919

Hans Robert Jaus,"pour une esthètique de la reception",éd Gaillimard,1990

مومن محمد، "حدود *فن بلا حدود*" مجلة الحياة الثقافية العدد188 ديسمبر2007

Couchot Edmond, « *L'art numérique, comment la technologie vient au monde de l'art* », éd Flammarion Collection : Champs Arts (2 mars 2009)